(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون [76]) أعقب زجرهم عن أن يشبهوا الله بخلقه أو أن يشبهوا الخلق بربهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثل عبدا بسيده في الإنفاق فجملة (ضرب الله مثلا عبدا) الخ مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون) .

فشبه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالا وشبه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره . ومعرفة الحالين المشبهتين يدل عليها المقام والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية ولذلك أعقب بجملة (هل يستوون) .

وذيل هذا التمثيل بقوله تعالى (بل أكثرهم لا يعلمون) كما في سورة إبراهيم (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) إلى قوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) الآية فإن المقصود في المقامين متحد والاختلاف في الأسلوب إنما يومئ إلى الفرق بين المقصود أولا والمقصود ثانيا كما أشرنا إليه هنالك .

والعبد : الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث .

وقد وصف (عبدا) هنا بقوله (مملوكا) تأكيد للمعنى المقصود وإشعارا لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية .

وانتصب (عبدا) على البدلية من قوله تعالى (مثلا) وهو على تقدير مضاف أي حال عبد لأن المثل هو للهيئة المنتزعة من مجموع هذه الصفات . وجملة (لا يقدر على شيء) صفة (عبدا) أي عاجزا عن كل ما يقدر عليه الناس كأن يكون أعمى وزمنا وأصم بحيث يكون أقل العبيد فائدة .

فهذا مثل لأصنامهم كما قال تعالى (والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء) وقوله تعالى (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) .

و (من) موصولة ما صدقها حر بقرينة أنه وقع في مقابلة عبد مملوك وأنه وصف بالرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا أي كيف شاء . وهذا من تصرفات الأحرار . لأن العبيد لا يملكون رزقا في عرف العرب وأما حكم تملك العبد مالا في الإسلام فذلك يرجع إلى أدلة أخرى من أصول الشريعة الإسلامية ولا علاقة لهذه الآية به .

والرزق : هنا اسم للشيء المرزوق به .

والحسن : الذي لا يشوبه قبح في نوعه مثل قلة وجدان وقت الحاجة أو إسراع فساد إليه كسوس البر أو رداءة كالحشف . ووجه الشبه هو المعنى الحاصل في حال المشبه به من الحقارة وعدم أهلية التصرف والعجز عن كل عمل ومن حال الحرية والغنى والتصرف كيف يشاء .

وجعلت جملة (فهو ينفق منه) مفرعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق للدلالة على أن مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته كمال في موصوفه فكونه صاحب رزق حسن كمال وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آحر وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء من الإنفاق ولا ما ينفق منه .

وجعل المسند فعلا للدلالة على التقوي أي ينفق إنفاقا ثابتا . وجعل الفعل مضارعا للدلالة على التجدد والتكرر أي ينفق ويزيد .

(وسرا وجهرا) حالان من ضمير (ينفق) وهما مصدران مؤولان بالصفة أي مسرا وجاهرا بإنفاقه . والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف وعدم الوقاية من مانع إياه عن الإنفاق .

وهذا مثل لغنى ا تعالى وجوده على الناس .

وجملة (هل يستوون) بيان لجملة (ضرب ا مثلا) فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب الصفة المشبهة بالحالة الثانية .

والاستفهام مستعمل في الإنكار .

وأما جملة (الحمد) فمعترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب ب (بل) الانتقالية . والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص ا بالإنعام فوجب أن يختص بالشكر وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر